ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لَعَاد إلى ما نُهِي عنه ، مِصْداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذى جعل كل أعمالهم التى ظنُّوا أنها صالحة ؛ مجردَ أعمال مُحْبطة ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحقِّ ؛ فلا تأتى السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل :

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. (٦٥) ﴾ [الحج]

وأنت كلما سِرْتَ وجدتَ الشمس من فوقك ، وهى مرفوعة بنظام هندسىّ دقيق .

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُؤكِّد قضية كونية مُحسَّة مشهودة ؛ وبدأ بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ .. ⦗١٩⦘ ﴾ [إبراهيم]

رغم أنه لا يوجد مع العَيْن أَيْن ؛ ذلك أن الشمس واضحةٌ أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى « ألم تَرَ » هنا تكون بمعنى « ألم تعلم » .

وجاء سبحانه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلّنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقٍّ أصدق مما تُعلمنا به العين ؛ فإذا قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهى تعنى : ألم تعلم علْماً مُؤكّداً ؛ لأن عينيك ربما تَخُونك فى الرؤيا ، أو تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ؛ فكان لابُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تَكُنْ لتُوجَد إلا بخَلْق الله لها ؛ وهو الذى أخبرنا أنها من خَلْقه ؛ ولم يدَّعها أحدٌ لنفسه ؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقها إلى أنْ يقولَ آخر أنه خلقها ؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ⦗٥٧⦘ ﴾ [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثْلما تعيش السماء ؛ فالفرد يموت ويُولَد غيره ؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخَلْق الرحماني أن الله خلق كُلَّ ذلك تسخيراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشذّ كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طُلب منك أيُّها الإنسان تكليفاً أنت مُخيَّر فيه إنْ شئتَ آمنتَ ، وإنْ شئتَ كفرتَ ؛ وإنْ شئتَ أطعتَ ، وإن شئتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريم بأن الرحمانية سبقتْ لنا نحن البشر من قبل خَلْقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيَّأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز في أشياء لا دَخْل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهي الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتي بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذي يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التي نأكلها أو التي تموت .

وهناك خَلْق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإنْ تغيَّرتْ مادته ، كالجمادات التي نراها ـ الجبال والأرض وعناصرها ـ ونكتشف منها كُلَّ يوم جديداً .

(١) أشفقن منها : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ٣٥١/١] .

إذن : فالمخلوقات التى استقبلتْ الوجود الإنسانى نوعان : نوع لا دَخْل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه دَخْل للأغيار مع بقاء مادتها وهى الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلُّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقَّ سبحانه وتعالى له صِفَتان :

صفة القدرة والقهر ؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التى أوجدها فى الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التى سخَّر بها سبحانه الأشياء لخدمة الإنسان مُطْلق سلطانه سبحانه على كُلِّ ما خلق ؛ فلا شيءَ يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التى وهبها للإنسان أنْ يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذى يطيع الله وهو قادر على أنْ يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله ؛ ويُثْبِت له صفة المحبوبية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ولنا أن نلحظ أن كلمة « بالحق » وردتْ فى مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ[1] ﴿٣٨﴾ ﴾ [الدخان]

وهذا يدلُّ على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارسَ الفلسفة تستقبل تلك القضيةِ استقبالين ؛ استقبالَ مَنْ يريد أنْ يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أنْ يكفرَ . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغيّر من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كُل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحْكمة .

والفريق الثانى ممَّنْ أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ فى الكون ووجود خَلَلٍ وعيوب خِلقية فى بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليلٌ على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إلهٌ مخلوقاً أعمى ؛ وآخر أعرجَ ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ فى الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذى أراد التغيير فى هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليل على وجود خالق ، والفريق الذى رأى أن هناك شذوذاً فى بعض المخلوقات أخذ ثبات الخَلْق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

---

(١) لعب : عمل عملاً لا يُجدى عليه نفعاً . لاعبون : عابثون غير جادين . [القاموس القويم : ٢/١٩٤] .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذا من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لَعلم كلٌّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهْم هذا الكون على ثبات ما فيه ؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً فى الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة فى السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيُّر فى الخلق دليلاً على وجود خالق ؛ فها أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل فى المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة ؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبث بشىء ؛ فتخرج له صُدْفة يستخدمها هو أو غيره كلُعبة .

يقول الحق :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ③ ﴾ [النحل]

أما الخلق بالحق ؛ فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحْكمة ؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السمـاوات والأرض ، وما دُمْتَ تريد ثبـاتاً فى حركـتك الاختـيارية ؛ فخُذ المنهج الذى أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قـضاياك كما ثبتت القضايا العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألاَّ يوجد فـساد فى المـجتمع من أىّ لَـوْنٍ فابحث عن حكم الله الذى ضَيّعه الإنسـان فى مخالفة منهجه تجـد أنّ ضياعه هو السبب فى وجود الفساد ؛ واقرأ قوله الحق فى سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[1] (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وهكذا أنت ترى الشـمس ـ على سـبـيل المـثـال ـ منضـبطةً فى شروقها وغروبها وكُسُوفها ؛ وكذلك القمر فى سُطوعه أو مَحاقه[3] أو خسوفه .

وكمـا رفع الحق سبـحانه السـماء ووضع المـيزان ؛ فـعليكم أنْ تَزِنوا كُلَّ أمـر بالمـيزان الصـحيح لـتنصلح أمـوركم ، فإن اعـتـدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هى استقرار لحركة الحياة .

أما إنْ ظللتُم على العِوَج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أنْ يُذهبكم وأن يأتى بخَلْق جديد :

---

(١) البيان : النطق المعبِّر عما فى النفس من معان وأفكار . [القاموس القويم : ٩٢/١] .

(٢) القسط : العدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور . والقسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ١١٦/٢] .

(٣) المحاق : آخر الشهر إذا امّحق الهلال فلم يُرَ . وقال ابن الأعرابى : سُمِّى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته فلم يرهُ أحد . [لسان العرب ـ مادة : محق] .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩)﴾ [إبراهيم]

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلقَ الخَلْق ، ووهبهم الاختيار ليُقبِل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملّكهم ألاَّ يُقبلوا عليه .

وفي موقع آخر يقول سبحانه :

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨)﴾ [محمد]

ويقول في قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠)﴾ [الزخرف]

إذن : فطلاقة قدرة الله التي خلقته بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرةُ المطلقة ما تشاء ، فلا شيء يتأبَّى على مرادات الحق ولا على قدراته .

ويقول في موقع آخر :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)﴾ [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجيء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

والشيء العزيز هو الشيء المُمْتنع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بيَّن لنا في جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتي بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتي بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتي بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ
أَجَزِعْنَآ (١) أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢) ﴿٢١﴾ ﴾

والبروز أن يظهر شيء كان خفياً . ويُقال « رجل بارز » أي : مرموق وقَيْد الأبصار ، ولا تُفتح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة بارزة » أي : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

---

(١) الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال المكروه . [القاموس القويم ١/١٢٢] .

(٢) المحيص : المهرب والمفرّ . والمحايصة ، مفاعلة ، من الحيص العدول والهرب من الشيء [لسان العرب ـ مادة : حيص] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً ..(٤٧) ﴾ [الكهف]

أى : سيرى كُلٌّ منا كُلّ الأرض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ؛ لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ويُقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى يفوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أنْ يسبقه ؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيْلَ فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أى : تراباً يُضبِّب المرئيات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى تجرى فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميعَ فلا خيول أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ..(٢١) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنزَّه أن تَخْفى عنه خافية فى الأرض أو السماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وهم مِنْ قَبْل كانوا :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

وكانوا قد ظنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويُبيِّتون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حُكْمهم فى ذلك حُكْم كل الخَلْق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخَلْق على لونين ؛ لونٍ مقهورٍ فيه الإنسان ، ولا إرادةَ له ؛ ولَوْنٍ مُخيَّر فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أزلاً أن الإنسان الذى تعوَّد على أنْ يتمرَّد على الله ؛ فهو يُوضِّح له : أنت قد ألِفْتَ التمرد وقَوْل « لا » ، وقد تُجاهر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فإنْ كنت صادقاً فى أن هذا الخروج ذاتىّ فيك ؛ فتمرَّد على القهريات التى تنتابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قادر على ذلك ؛ فلا الفقيرَ يستطيع أن يثرَى دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتى يوم يسلب منك الاختيار .

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر]

وأنت تبرز بكُلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخَلْق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مُطبقاً :

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا .. ۝٢١﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلْقون أوامرهم ؛ ليُنفِّذها الضِّعاف ، ثم يُفاجأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوتْ في اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويروْنَ ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهلَ الجبروت :

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۝٢١﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضُّعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن :

﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف]

وفي هذا القوْل استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله ـ والعياذ بالله ـ مشيئته وواسع علمه الذي يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوى الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا تقريع وخِزْى وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع فى أمر إلا إذا اقتنعتَ أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

وليتذكر كل منا قوله الحق :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحشر]

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله ؛ عليك أن تُعْلِى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كى ننتبَه جيداً فلا نُلْقِى زمام أمورنا لمن نتبع إلا بروِيّة وبحكمة ؛ أيدلُّنا على خير أم يدلُّنا على شر ؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فليكُنْ كُلٌّ مِنَّا على بينة من أمره ، وقد قال الحق سبحانه في سورة الرحمن :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾ [الرحمن]

والآلاء هي النعم ؛ ومن أرْقَى النعم هي تلك القيم التي أوضحها لنا الحق سبحانه لنسير على هُدَاها في الحياة الدنيا كي لا نُقبِل على الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شيء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كي لا يقف في موقف الخزي المشترك بين الاثنين في يوم الحساب ؛ حيث يقول التابعون للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهذا القَوْل القرآني يتكلم به ربُّ العالمين ؛ وكُلُّ حرف فيه لهدف ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

يعني أنهم لن يقدروا أنْ يُخفِّفوا ولو جزءً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسهِّلونها عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمَّلوا ؛ أو أنْ يُخففوا عنهم ولو جزءً بسيطاً من العذاب .

والمثَلُ على ذلك حين يطلب إنسان من آخر جنيهاً ؛ فيقول له :

ليس معي غيره ، فيردُّ الطالب : إذنْ اعطني بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبعوهم ؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأبَّوْا على الله إيماناً به ؟ ها هم يردُّون على مَنْ سألوهم أنْ يُخفِّفوا ولو جزء قليلاً من العذاب :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يتكشَّف كذبهم ؛ فهم يدَّعُون أن معنى الهداية هو أنْ يهبَهُم اللهُ الإيمان ؛ مُتناسين أن معنى الهداية هو الدلالة المُوصِّلة إلى الغاية .

ولنَا في قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ..﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

فمَنْ يُقبل على الإيمان بصدر مُنشرح يجد كُلّ سُبل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كفر فكيف يهديه الله ، وهو قد استحبَّ العمى على الهُدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أيَّة هداية .

ويقول الكافرون ذلك لمَن اتبعوهم في يوم الحشر ؛ ذلك أنهم يروْنَ رأى العين أن الجنة حَقٌّ ؛ والنار حَقٌّ ، والحساب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَن اتبعوهم في الدنيا بأن الحقَّ سبحانه لو أخذ بيدهم في الحياة الدنيا إلى الإيمان لَقُدناكم إلى هذا الإيمان ؛ وهم في ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم :

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ..(٢١)﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع فى مأزق أقوى من قدراته ؛ ولا فَجْوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقبالين ؛ الاستقبال الأول : أن يجزعَ ويتضرعَ ؛ والاستقبال الثانى : أنْ يصمدَ ويصبرَ .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم سواء جَزِعوا وتضرَّعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم الله مِمَّا هم فيه ؛ فلا مَهْرب ولا مَنْجى .

و « حاص » فى المكان أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ؛ ونجد فى تعبيرنا العامىّ ما يُصوِّر ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال « نَبَتْ بهم الأرض » ؛ أى : أن كُلَّ مكان فى الأرض يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ..(١١٨)﴾ [التوبة]

وهكذا نرى مَن نَبت بهم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم ؛ ونسمع مِمَّنْ يُنكِّل بهم الحق فى الحياة الدنيا مَنْ يقول : « أنا لا أطيق نفسى » .